المعول الثانى : بيان فساد اعتزاءهم بالآيات :

ادعى أهل الحشو (كذبًا) أن هناك آيات تدل على ظهور الدجال وعودة عيسى إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، ومن هذه الآيات :

الآية الأولى : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ . . . ﴾ .

ذهب بعض أهل الحشو إلى التقول علىَ الله جلَ وعلا بغَير علَم ولا هدى ولا كتاب منير وقاموا بلفتِ معانى الألفاظ (بسيطة ومركبة) بما ليس هو من معهود العرب فى لغتهم بل ولا العجم أيضاً ، كقولهم هنا إن **الناس تعنى الدجال** . وعندما يقول ربنا جل فى علاه إن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس فقد علم هنا أن الناس مقصود بها جنس بنى آدم ، كما قال سبحانه : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وقوله ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ، وقوله : ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ ، ولكن بعض المفسرين كان لهم رأى آخر مثل :

١ـ تفسير السمرقندى :

" قال الكلبى ومقاتل : لخلق السموات والأرض أعظم من خلق الدجال ، ويقال لخلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس بعد موتهم يعنى أنهم يبعثون يوم القيامة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن الدجال خلق من خلق الله " **(٢١٧)** .

٢ـ تفسير البغوى :

" ﴿لخلق السموات والأرض﴾ مع عظمهما ﴿أكبر﴾ أعظم فى الصدور ﴿من خلق الناس﴾ أى من إعادتهم بعد الموت ﴿ولكن أكثر الناس﴾ يعنى الكفارة ﴿لا يعلمون﴾ حيث لا يستدلون بذلك على توحيد خالقها . وقال قوم : أكبر (أى أعظم) من خلق الدجال ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يعنى اليهود الذين يخاصمون فى أمر الدجال . وروى عن هشام بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلقُ أكبر من خلق الدجال" **(٢١٨)** .

وعلى ذلك يكون معنى الآية هو : " لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق المسيح الدجال " ، وهذا سيضطرنا إلى عرض معنى كلمة الناس بأوجهها المختلفة :

الناس : لغة : الناس هو اسم وضع للجمع كالقوم والرهط وواحده إنسان . لفظه مشتق من ناس ينوس إذا تدلى وتحرك فيطلق على الجن والإنس ويصغر الناس على نويس ولكن غلب استعمال فى الإنس والناس أصله أُناسٌ فُخفف . قال صاحب اللسان: " روى المنذرى عن أبى الهيثم أنه سأله عن الناس ما أصله ؟ فقال : الأُناس " وفيه تطويل تجنبناه **(٢١٩)** .

الناس : عرفاً : ظل الاستخدام عرفاً على ما هو عليه لُغة ولم يتغير .

---

٢١٧ ـ انظر : تفسير السمرقندى : (١٧١/٣) .

٢١٨ ـ انظر : تفسير البغوى : (١٥٣/٧) .

٢١٩ ـ انظر : لسان العرب : (١١/٦) ، ومختار الصحاح : (٢٨٥) ، والمصباح المنير : (٢٤١) ، والقاموس المحيط : (٦٨٣)، والمحيط فى اللغة : (٣٨٨/٨) ، وعمدة الحفاظ : (٢٦٩/٤) .

الناس : شرعاً : استخدم لفظ الناس على معناه العام فقيل فى محكم التنزيل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ ، و ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ ... الخ .

كما استخدم فيما هو أخص من ذلك مثل ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ ، ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ .

إذن فلا وجاهة مطلقاً للجرآء على كتاب الله وآياته . هذا وقد تحاشى بعضهم هذا المعنى القبيح فى مؤلفاتهم (٢٢٠) .

الآية الثانية : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ . . . ﴾ .

١ـ بحار الأنوار :

" وفي رواية أبي الجارود ، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ، قال : هو الدجال والصيحة " **(٢٢١)** .

٢ـ مستدرك سفينة البحار :

" تفسير قوله تعالى : (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) يعني الدجال والصيحة " **(٢٢٢)** . **وفساد تأويلهم للعذاب هنا ينافس فساد تأويل السنية للناس !**

الآية الثالثة : ﴿ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا . . ﴾ .

ذهب بعض أهل الحكاية **(٢٢٣)** إلى أن الآية دليل على نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان . وعللوا ذلك بأن عيسى عندما تُوفى ورفع كان لا يزال أقل من سن الكهولة ولذا فلابد أن يعود (بزعمهم) فى آخر الزمان ليُكمل عمره ، وليصل إلى سن الكهولة !

والحقيقة أن هذا الذى قالوه يدل على سطحيتهم ، وتأثرهم بالروايات وجعلها قاضية

---

٢٢٠ ـ ومن هؤلاء : أبو حيان التوحيدى : " أى أن مخلوقاته أكبر وأجل من خلق البشر فما لأحد يجادل ويتكبر على خالقه " ، **وانظر** البحر المحيط (٤٥١/٧) .

البيضاوى : " فمن قدر على خلقها مع عظمها أولاً من غير أصل قدر على خلق الإنسان ثانياً من أصل ، وهو بيان لا شكل ما يجادلون فيه من أمر التوحيد . (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لفرط غفلتهم واتباعهم أهواءهم " ، **وانظر** تفسيره (٣٤٤/٢) .

ابن عطية : " قوله تعالى ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ توبيخ لهؤلاء الكفرة المتكبرين ، كأنه قال : مخلوقات الله أكبر وأجل قدرا من خلق البشر فما لأحد منهم يتكبر على خالقه . . . " **وانظر:** تفسير المحرر الوجيز لابن عطية (٥٦٥/٤) .

الفخر الرازى : " ثم إن هؤلاء القوم يسلمون أن خالق السماوات والأرض هو الله سبحانه وتعالى ، ويعلون بالضرورة أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس وكان من حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السماوات والأرض يكون قادر على إعادة الإنسان الذى خلقه أولاً ، فهذا برهان جلى فى إفادة هذا المطلوب " **وانظر** : التفسير الكبير للفخر الرازى ـ تفسير الآية .

٢٢١ ـ انظر : بحار الأنوار للعلامة المجلسي (٢٠٥/٩) ، (١٨١/٢٥) .

٢٢٢ ـ انظر : مستدرك سفينة البحار للشيخ علي النمازي (١٢٩/٧) .

٢٢٣ ـ ومن هؤلاء : القرطبى بتفسيره (٥٨/٤ ـ عملية) : " الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة... " إلى أن قال : " يقول : يكلم الناس فى المهد آية ويكلمهم كهلاً بالوحى والرسالة " ثم عاد وذكر قول رجل اسمه أبو العباس وفيه أن المقصود هو نزول عيسى !!

الطبرى بتفسيره (٣٧٠/٣ ـ فكر) : " ويكلم الناس فى المهد دلالة على براءة أمه مما قذفها به المفترون عليها وحجة له على نبوته ، وبالغاً كبيراً بعد احتناكه بوحى الله الذى يوحيه إليه وأمره ونهيه ". ثم عاد وذكر قول رجل اسمه ابن زيد وفيه أن المقصود هو نزول عيسى !!

الرازى بالتفسير الكبير (٤٦/٨) الذى أورد أولاً القول الواضح ثم أردفه بقول رجل أسمه الحسين بأن المقصود هو نزول عيسى!

على معانى الآيات . والعلة هى تقليدهم لسلفهم . **ولكى نبدد أوهامهم فنقول** :

جبريل عليه السلام أمين الوحى يؤيد الرسل :

وهو الذى ينزل بالرسالات من رب العالمين إلى الرسل من الناس ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ **(٢٢٤)** . وعندما يؤيد الرسل فإنما يؤيدهم بالوحى وبكلام رب العالمين وعلى ذلك يتنزل المعنى فى الآية ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ .

وعيسى عليه السلام كلم الناس بالوحى مرتين :

فأما المرة الأولى فهى التى كلم الناس فيها وهو بالمهد ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ . **وأما الثانية** فهى التى قال فيها ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ . فعلى ذلك يتنزل المعنى فى الآية ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ ولكن كما علمنا فإن كل مرة منهما يلزمها وحىّ . **فيكون تأييد جبريل عليه السلام لعيسى عليه السلام قد تكرر مرتين :**

مرة وهو فى المهد ؛ إذ المولود لا يتكلم ولا يعقل عادة ، ولكن أراد القيوم مسبب الأسباب أن تتعطل أسبابه . فلما قالت اليهود لمريم ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ لم تتكلم مريم عليها السلام بل ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ ولكنه وليد حديث الولادة ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ وهنا جاء دور روح القدس ليوحى للصبى حديث الولادة عليه السلام ﴿ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾ فنطق الصبى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ . . ﴾ الآيات . إذن فقد بدأت نبوة عيسى عليه السلام وهو لا يزال صبيًا حديث الولادة ولكن لم تكن قد أرسلت إليه أية رسالة بعد .

والمرة الثانية كانت عندما أُرسل إليه عليه السلام ليبلغ رسالة رب العالمين لبنى إسرائيل ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ وبالطبع فإن هذه المرة أيضًا لابد من الوحى لكى تتم الرسالة التى يحين موعدها عادة عند الكهولة **(٢٢٥)** .

---

٢٢٤ ـ فنجد المولى جل وعلا يقول لنبيه ﷺ : ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ . وهكذا نجد أن الآيات وضحت أن جبريل عليه السلام هو الذى نزل بالوحى والرسالة إلى النبى ﷺ . ونجد المولى جل وعلا يقول أيضاً : ﴿يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾ . فهذا بيان لعموم خصوص جبريل عليه السلام بنقل الوحى إلى الرسل عموماً ! وقد بين المولى جل وعلا أن نزول جبريل عليه السلام على أحد بأى تنزيل فإنما يكون بإذن الله ، فقال سبحانه: ﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ .

٢٢٥ ـ الكهل : هو الرجل إذا وخطه الشيب ، ورأيت له بجالة وفى الصحاح : الكهل من الرجال الذى جاوز الثلاثين وخطه الشيب . وقال ابن الأثير : الكهل من الرجال من زاد على ثلاثين سنة إلى الأربعين . وقال ابن الأزهرى : وقيل له كهل حينئذ لانتهاء شبابه وكمال قوته ، والجمه كهلون وكهول وكهان وكهلان وقيل من بلغ الأربعين ، وقيل الحليم العاقل ، وقيل : المحتنك فوق الغلام ودون الشيخ . وانظر : لسان العرب : (٦٠٠/١١) ، والمصباح المنير (٢٠٧) ، ومختار الصحاح : (٢٤٢) ، والنهاية لابن الأثير : (٢١٣/٤) ، والمحيط فى اللغة : (٣٥٧/٣) ، وعمدة الحفاظ : (٥٠٦/٣) ، وأساس البلاغة : (٥٥٣) ، وغراس الأساس : (٣٩٩) والقاموس المحيط : (١٣٦٣) . ويقول ابن القيم بزاد المعاد : " بعثه الله (أى بعث محمد ﷺ) على رأس أربعين (سنة) وهى سن الكمال ولها تبعث الرسل " اهـ .

الكهولة لغة : هى **الاكتمال** . قال الأزهرى : " قيل له كهل حينئذ لانتهاء شبابه وكمال قوته " . واكتهل النبات : أى طال وانتهى منتهاه . قال الأعشى : يُضاحك الشمس منها كوكب شرق .. مؤزر بعميم النبت مُكتهل . وقال ابن منظور معقباً : وليس بعد اكتهال النبت إلا التولى . ولنطابق ما توصلنا إليه من معان مع ما جاء بكتاب رب العالمين :

يقول المولى جل وعلا ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ وهو ما يقابل ويتطابق مع ما ذكرناه فى المعنى اللغوى للكهولة (وهو بلوغ الشئ أشده) ، فما هو تعريف سن هذه المرحلة ؟! استمع :

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ.. ﴾ الآية (الأحقاف : ١٥) . أى أن بلوغ المرء أشده (وهو تعريف الكهولة) هو عند سن الأربعين وهو الذى له يبعث الأنبياء ، وبعث عنده النبى ﷺ وفداه نفسى ، وبعث عنده عيسى عليه السلام . وقد وُفِقَ **بعض مفسري أهل الرواية لتفسير الآية** (بعيداً عن القصص) **ومنهم :**

ابن كثير : " ﴿ويكلم الناس فى المهد وكهلا﴾ أى يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له فى حال صغره معجزة وآية ، وفى حالة كهولته حين يوحى الله إليه " **(٢٢٦) اهـ** .

الشوكانى : " والكهل هو من كان بين سن الشباب والشيخوخة ، أى يكلم الناس حال كونه رضيعاً فى المهد ، وحال كونه كهلاً بالوحى والرسالة " **(٢٢٧)** اهـ .

السمين الحلبى : " الكهل من الرجال من وخطه الشيب " ، إلى أن قال : " ويقال الكهل هو الذى تم شبابه ، ومنه : اكتهل النبات : ثم طوله ، ويقابل به الشباب " **(٢٢٨) اهـ** .

فيكون خلاصة هذا العرض أن الكهولة فى الآية هى بلوغ المرء أشده وهى السن التى وضحها المولى جل وعلا فى الآيات بأنها سن الأربعين . فلا تعلق لأحد فى الآية على أن فيها دليلاً على عودة عيسى فى آخر الزمان والله المستعان على أهل الزيغ .

الآية الرابعة : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ . . ﴾ .

ذهب بعض أهل الحكاية إلى أن الآية ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ دليل على نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان . وَعللوا ذلك بأنَ عيسى لَم يَمُت بعدَ ، وعند عودته فلن يتبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ؛ إذ أنهم جميعهم سيصدقون به إذا نزل لقتل الدجال . وسوّد العديد منهم كتبهم لسرد هذه العقيدة **(٢٢٩)** .

---

٢٢٦ ـ انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : (٣٦٤/١ ـ حلبى) .

٢٢٧ ـ انظر : فتح القدير للشوكانى : (٥١٤/١ ـ فكر) .

٢٢٨ ـ انظر : عمدة الحفاظ للسمين الحلبى : (٥٠٦/٣ ـ عالم الكتب) .

٢٢٩ ـ ومن هؤلاء : **ابن كثير فى تفسيره :** " قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم معنى ذلك "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته" يعني قبل موت عيسى يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال فتصير الملل كلها واحدة وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن بشار حدثنا عبدالرحمن عن سفيان عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته" قال: قبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام وقال العوفى عن أبو عباس مثل ذلك وقال أبن مالك في قوله "إلا ليؤمنن به قبل موته" قال: ذلك عند نزول عيسى وقبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به .

وقال الضحاك عن ابن عباس وإن من هل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته **يعني اليهود خاصة** .

أما معنى الآية فهو أوضح من أن نبرزه ، ولكن نظرًا لما أحاطه به أهل الرواية من شغب فتوجب الكلام عليه بالتفصيل ، ومن القرآن أيضًا :

فقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يقتضى التفرقة بين أهل الكتاب ، والكفار من أهل الكتاب . يقول سبحَانَهَ :

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ، ويقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ ، ويقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ . . . الخ . إذن فالمقصودون فى الآية هنا هم أهل الكتاب ، وليسوا الكفرة والمشركين منهم .

وقوله سبحانه ﴿ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ يعنى أن الموجودين من أهل الكتاب حال بعثة عيسى لن يسعهم إلا أن يؤمنوا بَه لما جاءَ به من الصدق ، والكتاب المصدق لكتاب موسى ﷺ ، ولما بين يديه من معجزات حسية فاقت كل تصور ، فهو ﷺ يبرئ الأكمه ، والأبرص ، ويحيي الموتى ، ويعمل من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيصير طيرًا ، وكله بإذن الله الواحد .

وقوله سبحانه : ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يعنى قبل موت عيسى عليه السلام تصديقًا لقوله سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، فقبل وفاته عليه السلام سيؤمن بَه أهل الكتَاب . وعلىَ ذلك فتَكونَ الآية دَليلاً علىَ أن عيسى عليه السلام قد مات ، وآمن به من آمن من أهل الكتاب ، وليس أنه لم يمت بعد ، وأنه سيرجع ليكره الناس على الإسلام ، فيضطر من يضطر إلى الإيمان به ، وبالتالى يؤمن به كل أهل الكتاب قبل موته .

وهذا ينقلنا لتفصيل أن عيسى عليه السلام قد مات ويُبعث يوم القيامة طبقًا لآيات القرآن :

وقال الحسن البصري: **يعني النجاشي وأصحابه** رواهما ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب حدثنا أبو رجاء عن الحسن وإن من "أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته" قال: قبل موت عيسى والله إنه لحي الآن عند الله ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا علي بن عثمان اللاحقي حدثنا جويرية بن بشير قال: سمعت رجلا قال للحسن: يا أبا سعيد قول الله عز وجل "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته" قال: قبل موت عيسى إن الله رفع إليه عيسى وهو باعثه قبل يوم القيامة مقاما يؤمن به البر والفاجر. وكذا قال قتادة وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد **وهذا القول هو الحق كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله** وبه الثقة وعليه التكلان .

٢ ـ القرطبى فى تفسيره : " قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة: المعنى ليؤمنن بالمسيح "قبل موته" **أي الكتابي**؛ فالهاء الأولى عائدة على عيسى، والثانية على الكتابي؛ وذلك أنه ليس أحد من أهل الكتاب اليهود والنصارى إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام إذا عاين الملك، ولكنه إيمان لا ينفع؛ لأنه إيمان عند اليأس وحين التلبس بحالة الموت؛ فاليهودي يقر في ذلك الوقت بأنه رسول الله، والنصراني يقر بأنه كان رسول الله. وروي أن الحجاج سأل شهر بن حوشب عن هذه الآية فقال: إني لأوتى بالأسير من اليهود والنصارى فآمر بضرب عنقه، وأنظر إليه في ذلك الوقت فلا أرى منه الإيمان؛ فقال له شهر بن حوشب: إنه حين عاين أمر الآخرة يقر بأن عيسى عبد الله ورسوله فيؤمن به ولا ينفعه؛ فقال له الحجاج: من أين أخذت هذا ؟ قال: أخذته من محمد ابن الحنفية؛ فقال له الحجاج: أخذت من عين صافية. وروي عن مجاهد أنه قال: ما من أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موته؛ فقيل له: إن غرق أو أحترق أو أكله السبع يؤمن بعيسى ؟ فقال: نعم ! وقيل: إن الهاءين جميعا لعيسى عليه السلام؛ والمعنى ليؤمنن به من كان حيا حين نزوله يوم القيامة؛ قال قتادة وابن زيد وغيرهما واختاره الطبري. وروى يزيد بن زريع عن رجل عن الحسن في قوله تعالى: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته" قال: قبل موت عيسى؛ والله إنه لحي عند الله الآن؛ ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون؛ ونحوه عن الضحاك وسعيد. بن جبير. وقيل: "ليؤمنن به" أي بمحمد عليه السلام وإن لم يجر له ذكر؛ لأن هذه الأقاصيص أنزلت عليه والمقصود الإيمان به، والإيمان بعيسى يتضمن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام أيضا؛ إذ لا يجوز أن يفرق بينهم. وقيل: "ليؤمنن به" أي بالله تعالى قبل أن يموت ولا ينفعه الإيمان عند المعاينة. والتأويلان الأولان أظهر. وروى الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال: "لينزلن ابن مريم حكما عدلا فليقتلن الدجال وليقتلن الخنزير وليكسرن الصليب وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين)، ثم قال أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته" قال أبو هريرة: قبل موت عيسى؛ يعيدها ثلاث مرات.

المعول الثالث : الآيات تنصّ على وفاة عيسى عليه السلام :

بيان أن عيسى عليه السلام يموت مرة واحدة ، وأن هذه المرة قد حدثت فعلاً وتوفاه الله !

ومن هذا العنوان كما يبدو فهناك مطلبان وهما :

بيان أن عيسى عليه السلام يموت مرة واحدة ، ويبعث مرة واحدة .

بيان أن عيسى عليه السلام قد مات بالفعل وأنه لا يحيى إلا يوم القيامة. وللبيان :

ط بيان أن عيسى عليه السلام يموت مرة واحدة ، ويبعث مرة واحدة .

عندما قال عيسى بن مريم عليه السلام ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ فقد حددت الآية أن موت عيسى وبعثه يكونا مرة واحدة كولادته ! وكشأن بقية البشر . وكذلك فقد جاء عن نبى الله يحيى عليه السلام ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

إذن فعيسى عليه السلام **شأنه شأن يحيى شأن الناس** ، الكل يموت ثم يبعث حيا . ولو كانت هناك موتتان وبعثان لذُكر ذلك بسياق الآيات بدلاً مما ذكر من كونه مرة واحدة .

<u>إلا أن هذا الذى نقوله هنا برغم ظهوره ووضوحه قد غاب عن أهل الحكايات لتغليبهم إياها على سواها . فراح عندهم أن الله رفع عيسى إلى السماء حياً ، وعليه فهو سيعود يوماً ما ليقوم بما ذكرنا بعضه آنفا</u> .

ومن ذلك ما ذكره المحدث ابن كثير بتفسيره ، وفيه : " وقال ابن جرير عن مجاهد : صلبوا رجلاً شبه بعيسى ، ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء **حياً** " **(٢٣٠)** اهـ .

ثم قال أيضاً : " نقل عن الحسن أنه قال : والله **إنه لحى الآن** عند الله " **(٢٣١)** اهـ.

فهؤلاء القوم بنوا كل **أوهامهم على** ما راجٍ عندهم من أن عيسى عليه السلام حيّ لم يمت بعد وإنما سيموت بعد نزوله (المزعوم) . فهل فعلاً عيسى لم يمت بعد ؟! والجواب :

٢ ـ بيان أن عيسى عليه السلام قد مات بالفعل وأنه لا يحيى إلا يوم القيامة.

عندما طالعنا المطلب السابق لاحظنا أن أولياء النزول قد أقروا بأن عيسى عليه السلام يموت مرة واحدة وأنها لم تحدث بعد ، وتترسوا بأقوال (لا قيمة لها) منقولة عن بعض المفسرين كحجة على أنه ما زال حيا . والأخبار التى لازمام لها ولا خطام تهمل ولا تنقل ، ولكنها عند أهل الحشو تنقل مهما كانت متناقضة . والذى جعل هؤلاء يطمئنون إلى ما يقولون أحياناً هو أن نظرهم إلى آيات الكتاب دائماً أو غالباً ما يكون جزئياً . فقد نظر هؤلاء للآية ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ وغفلوا عن الآية : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . ثم إن الذين نظروا فى هذه الآية قد غفلوا عن أشياء وأشياء عند نظرهم

٢٣٠ ـ **أنظر** : تفسير القرآن العظيم للمحدث ابن كثير : (٥٧٦/١) .
٢٣١ ـ **أنظر** : المرجع السابق – الموضع السابق .

ولنستعرض أولاً بعض أقوالهم فى تأويل معنى الآية :

القول الأول : أن الوفاة هى النوم ! وذلك كما قال المحدث ابن كثير : " وفتحت روزنة من سقف البيت وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم فرفع إلى السماء وهو كذلك (أى نائم) " **(٢٣٢)** اهـ .

القول الثانى : هو قول قتادة ونقله ابن كثير بتفسيره : " قال قتادة وغيره : هذا من المقدم والمؤخر ، تقديره إنى رافعك إلى ومتوفيك (يعنى) بعد ذلك " **(٢٣٣)**، وبه قال الفرّاء .

القول الثالث : هو قول ابن جرير ، ونقله أيضاً المحدث ابن كثير فى تفسيره : " قال ابن جرير : توفيه هو رفعه " اهـ .

تفنيد ما ذهب إليه أهل الحديث فى تفسير الوفاة :

القول الأول : نوم عيسى عليه السلام !!

عندما طالعنا قول أصحاب هذا القول وجدناه خالياً من وجود دليل معتبر ، ولم يقدموا بين يدى دعواهم أى مستند شرعى يبين أن الوفاة هنا تعنى النوم . ولعل متعلقهم فيما ذهبوا إليه هو قول الله تعالى ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ (الزمر :٤٢) . وقوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ ، ولا تعلق لهم فى هذا فهذه الآيات توضح على العموم أن الله جل وعلا يتوفى كل الأنفس ، وبيان ذلك أنه سبحانه يتوفى التى قضى عليها الموت ويتوفى التى تنام ، فإن قدر لبعض الأنفس التى نامت أن تموت فى حال نومها أمسكها وأرسل الباقى . فتخصيص الوفاة هنا بالنوم هو إخراج لها من عمومها دون مخصص يذكر . ولقد جاءت لفظة " الوفاة " فى جميع مواقع الآيات بمعنى الموت وعلى سبيل المثال لا الحصر : ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ ، ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ ، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ، ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ ، ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ .

بل إن الخطاب إذا جاء من المولى جل وعلى وفيه الوفاة فهى : الموت : ﴿وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ، ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ .

إذن فلا يصح أن يخرج معنى الوفاة إلى النوم إلا بمخصص ، وهو معدوم اللهم إلا إذا اعتبرت قصص " المساطب " وهذا ممتنع عند النظر فى آيات كتاب رب العالمين .

القول الثانى : التقديم والتأخير !!

وهذا القول هو مثال يضرب لغرابة عقول الذين أقحموا أنفسهم فى تأويل آيات القرآن باللامعقول ! فهل يعقل أن يأتى الخطاب القرآنى بكلمة وهو يعنى عكسها ودون حاجة لذلك ؟! وهل من تيسير القرآن للذكر أن يقول الله جل وعلا لعيسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي

---

٢٣٢ ـ أنظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : (٥٧٤/١ — تفسير آية ١٥٨ — النساء) .

٢٣٣ ـ أنظر : المرجع السابق : (٣٣٦/١) ، وفتح القدير للشوكانى : (٥٢٠/١ — فكر) .

مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وهو يقصد سبحانه : " إنى رافعك ومتوفيك إلى " ؟!

ومن أين لهذا المفسر هذا العلم الذى يخول له أنه يقدم ويؤخر ويُغَير فى معانى القرآن هكذا ؟! هل عنده آثارة من علم يخرجها لنا فنجده على علم واتباع له ؟! بالطبع لا يوجد، وكنت أتمنى إهمال مثل هذه التأويلات الباطلة بدلاً من حشو الكتب بها ثم العقول تبعاً ، ثم تصير بعد ذلك أقوالاً لها اعتبارها عند أهل الحشو لأنه عندهم كلام سلف ! !

القول الثالث : أن الوفاة تعنى الرفع !!!

وهو من طرائف أهل الرواية (الذين لا يبالون بما يقولون) ولنطبق هذه الدلالة المبتكرة فيكون المعنى هو:

" إذ قال الله يا عيسى إنى رافعك ورافعك إلى " ! !

هذا هو الذكاء المطلوب أن نتبعه هنا لأنه ذكاء بالمأثور .

وبعد أن رأينا كيف أن القوم قد ذهبوا فى تأويل الآية إلى اتجاهات متباينة ومختلفة (كعادتهم فى كتب التفسير عموماً وغالباً) **فلعله من المناسب** أن نطلع على معنى الآية استقراءً من آيات رب العالمين ، ومن المواقع الأخرى التى جاء بها ذكر نفس الجزئية بقرآن رب العالمين وذلك بعد أن ننقل هذه الطريفة من عند الإمام الشوكانى الذى يقول :

" وإنما احتاج المفسرون إلى تأويل الوفاة بما ذكر ، لأن الصحيح أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة كما رجحه كثير من المفسرين واختاره ابن جرير الطبرى ووجه ذلك أنه قد صحّ فى الأخبار عند النبى ﷺ نزوله وقتله الدجال " اهـ .

وهذا الذى قاله الإمام الشوكانى فيه أبلغ التعبير ، وإن كان لا يقصد ما سنوضحه هنا ولكن لا محيص لهم عن الوصول إليه معنا .

١ ـ فالشوكانى قال بالحرف الواحد : " وإنما **احتاج** المفسرون إلى تأويل " ، أى أن هناك احتياج إلى هذا التأويل ولولا هذا الاحتياج لما صاروا إلى ما صاروا إليه .

٢ ـ ثم قال الشوكانى : " لأن **الصحيح** أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة " ، فما هو الدليل المعتبر الذى جعل ما قاله هنا صحيحاً ؟! استمع :

٣ ـ ثم قال : " **كما رجحه كثير من المفسرين** واختاره ابن جرير الطبرى " اهـ . وهذا كما هو معلوم لأى طالب علم استدلال لا وزن له فى مصاف الأدلة .

٤ ـ ثم قال : " ووجه ذلك أنه قد صح فى الأخبار عن النبى ﷺ نزوله وقتله الدجال " اهـ. **إذن فهذا هو الذى عليه التعويل عند الشوكانى وغيره فى هذه المسألة** ، وسيأتى بعد صفحات أن هذه الأخبار بخلاف كونها ليست بمصدر اعتقاد فهى مضطربة اضطراباً شنيعاً. وعندها سنعرف أن القوم تتبعوا سرابًا ولم يرو لهم ظمأ .

بيان أن الوفاة المقصودة بالآية هى وفاة الموت :

قلنا من قبل أن لفظ " الوفاة " إذا جاء بالكتاب فهو يعنى الموت باستثناء الموقعين اللذين جاء فيهما بيان أن الله جل وعلا يتوفى الأنفس حين موتها ويتوفاها بالليل . **وقلنا**

إنه لكى يتخصص لفظ الوفاة بالنوم فلابد له من مخصص (وهو معدوم هنا) ، وقلنا إن الخطاب قد جاء من المولى سبحانه إلى نبيه ﷺ بالوفاة " أى الموت " . ولكى نزداد اطمئناناً هنا إلى أن الوفاة المذكورة تعنى الموت فلنطالع ما جاء فى بعض المواضع الأخرى :

فعندما قال عيسى عليه السلام :

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾

فهذه الوفاة هنا كما يبدو ويظهر هى وفاة الموت ، وعلى كلام أهل الحشو فهى التى بعد نزوله لأنه سيظل حياً حتى ينزل أليس كذلك ؟! فإذا انتهينا من ذلك فسنجد ما يلى :

١ ـ إن عيسى عندما ينزل (بزعمهم) سيكون وحده فكيف سيقال أنه طلب من الناس عبادته وأمه ، مع أن أمه عليها السلام لم تنزل معه ؟!

٢ ـ **سلمنا** أن هذا قد قيل عند نزوله وحده فكيف قيل برغم أن الروايات التى قالت بنزوله قالت أيضاً أن الكل سيؤمن ويسلم ، وتكون السجدة واحدة لرب العالمين ، وأن الكفار سيموتون سواء بالقتال أو عند شم ريح نفسه ، فكيف ستنتشر هذه الإشاعة عند المسلمين أيامئذ الذين سيرعى فى أيامهم الذئب مع الغنم ، والنمر مع البقر ؟!

٣ ـ **سلمنا** أن هذا سيحدث وستنتشر هذه الكذبة بين بعض المسلمين فى آخر الزمان فكيف يستقيم أن تسرى هذه الفرية مع أنه عليه السلام (بزعمهم) يكسر الصليب ويضع الجزية ويعمل بدين النبى ﷺ وبقرآن رب العالمين ؟!

٤ ـ **سلمنا** أنه كسر الصليب ووضع الجزية ولم يقبل إلا الإسلام وكانت السجدة واحدة لله رب العالمين ، فكيف سيروج أصحاب هذه الإشاعة (وهى الدعوة لاتخاذ عيسى وأمه إلاهين من دون الله) إشاعتهم مع وجود القرآن وهو يبرئ عيسى عليه السلام ؟!

أى أن هؤلاء يقولون : إن بعض الناس سيقولون ذلك بينما القرآن يُتلى بين كل الناس الذين صاروا كلهم مسلمين وفيه تبرئة عيسى وتكذيبهم !! **فكأنهم عندما سيقومون بترويج هذه الإشاعة يقولون : نحن كذابون بنص القرآن** !!!

فإذا وضح هنا استحالة أن يكون هذا الكلام قد قيل عند النزول (المزعوم) لعيسى فيكون قد قيل بعد وفاته التى رفع بعدها ، وتكون الوفاة فى الآية ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ هى وفاة الموت .

ولما كان الموت مرة واحدة كما سبق فهذا دليل استنباطى من الآيات على استحالة النزول (اللهم إلا بنصّ قطعى ، وهو ممتنع) !!

إلا أن يزعم أهل الحشو أن الوفاة فى الآية ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ هى وفاة النوم أيضا وهذا لا يستبعد على أدمغتهم المحشوة بالقصص والحكايات .

ثم إن هناك أمراً آخر يدل على أن الوفاة المذكورة فى الآية : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ هى وفاة الموت وأنها هى المذكورة فى الآية :

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا الأمر هو :

١ ـ أن عيسى عليه السلام لما نزل رسولاً لبنى إسرائيل كان أساس رسالته كسائر الرسالات هو التوحيد . وقد لخص القرآن هذه الحقيقة فى جملة واحدة وجعلها فى كل الآيات التى ذكرت خطابه لبنى إسرائيل وذلك مثل : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۞ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ . وكذلك : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ . وكذلك : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۞ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ۞ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ۞ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ۞ إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ... ﴾ .

إذن فهذا الخطاب المحتوى على دعوة التوحيد (إن الله ربى وربكم فاعبدوه) هو الخاص بدعوة عيسى عليه السلام لبنى إسرائيل ولذا ففى صدر الآيات نجد : ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ... ﴾ ، وكذلك : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . وعلى هذا نستطيع فهم ما جاء بآيات سورة المائدة .

٢ ـ وهذه الآيات فيها : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ . وواضح هنا فى هذه الآية أن الدعوة هى نفسها التى نزلت على عيسى ليدعو بنى إسرائيل إلى إجابتها ، وهى نفسها التى توفى بعدها وفاة الموت ، وهى نفسها التى جاءت قبل الوفاة والرفع .

٣ ـ ولو كان هناك نزول بعد ذلك لقال عليه السلام : " فلما توفيتنى ثم نزلت ثم مت كنت أنت الرقيب عليهم " ، أو يقول : " قد عدت فوجدتهم يقولون ذلك افتراءً علىّ ، فنهيتهم " . . . الخ ، وهذا بالطبع لم يحدث ، وطالما هو فى حكم العدم فالنزول مثله فى حكم العدم ،والوفاة واحدة ويعتذر بها عيسى عليه السلام يوم القيامة بعدم العلم بأحوال أهل الكتاب من بعده ، وواضح من الآيات أن اعتذار عيسى عليه السلام كان يوم القيامة : ﴿قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ... ﴾ الآية .

ونخلص من هذا العرض للآيات :

أن الوفاة التى ذكرت قبل الرفع هى نفسها الوفاة التى جاءت فى نهاية حياة عيسى والتى بعدها بُعث وسأله المولى جل وعلا واعتذر فى جوابه بأنه عندما توفاه الله انتهى علمه بحال أهل الكتاب حتى بُعث .

ولو كان عاد مرة أخرى لكان على علم بحال المعاصرين لنزوله من أهل الكتاب ولتوجب ذكر ذلك فى الآيات وهو غير حاصل .

إذن فهو عليه السلام مثله مثل سائر البشر يموت ثم يُبعث يوم القيامة . وطالما ثبت أنه قد توفى ورفع وأن الوفاة هى وفاة الموت فهذا يعنى أنه لن يبعث إلا يوم القيامة .